عَيْنانِ نَضّاخَتانِ لِلتّنْمِيَةِ اللُّغويّةِ في الْعَرَبيّةِ

أ.د. ياسر إبراهيم الملاح

١) المَدْخل:

تَحْظى اللغة العربية بمزايا يَنْدرُ أنْ يكونَ لها مثيلٌ عندَ غَيْرِها منَ اللغات المُنْتشرة في العالم هذه الأيام. فمن هذه المَزايا انتشارُ العربية في العالم القديم، بَعدَ مَجيءِ الإسلام وثبوت أمره، انتشارا بلغتْ به مدىً جغرافيا واسعا قاد إلى تعَرّب شعوب كاملة مُتخذة العربيّة لسانا لها، وذلك بفضل دُخولها في الإسلام، فكان الإسلامُ عاملا قويا في هذا الانتشار. وقدْ شكّلَ هذا الانتشارُ، بما حمله معه من تغيير جذري في العقيدة واللغة والعادات والأخلاق والانتماء، في مدة وجيزة من الزمن، ظاهرة فريدة في تاريخ البَشرية، ولا يشبهه أيُّ انتشار لغويٍّ آخرَ، وإنّ مَنْ يحاجج في انتشار الإنجليزية مثلا، في العصر الحَديث، فإنَّهُ انتشارٌ مُخْتلفٌ في الأسْباب والغايات والظروف المُحيطة به والمَدى الزمنيّ، ليبْقى انتشارُ العربية مُمَيّزا وفريدا عَلى جَميع المُسْتويات. وعلى الرَّغم من هذا الانتشار الذي بلغَ غايتَه في العصور الوُسْطى فإنه أخذ، في أيامنا هذه، وأيام سبقتْها بقليل، ينْحَسرُ انحسارا مَلموسا، حتى بين العرب أنفسهم، لأسباب كثيرة لعل أهمَها انحسارُ السلطان العربيّ والإسْلاميّ عن المسْرح العالميّ، واتساعُ نفوذ دُول الاستعمار على الحياة العالمية لما تتمَتّعُ به منْ قدْرَة عَسْكريّة هائلة. وعلى الرَّغم من هذا الواقع المرير فإنّ الظروفَ مُهَيّأةٌ تماما لاستعادة العربية رُقعة انتشارها إذا تخلصَ العربُ منْ هزيمتهم النفسية واتخذوا النشاطَ والإخلاصَ أساسا في العمل. ومنْ هذه المزايا ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم، فهذا الارتباط جعلَ العربيّة لغة ربّانية مُقدّسة، وساعدَ على حفظها منَ التشرذم والتفكك، فالعربيّة يتآلفُ فيها ماضيها البعيدُ بحاضرها القريب، فالدارسُ للغة العربية يُمْكنه أنْ يَفهمَ نصّا شعْريّا مُعقدا فهما إجماليّا لامرئ القيس، الشاعر الجاهليّ المَعْروف، مثلا، قالهُ قبلَ ١٦٠٠ عام، بَيْنما لا يَسْتطيعُ طالبٌ إنجليزيٌّ أنْ يَفهمَ نصّا سَهْلا لأحد شعَراء الإنجليز قيلَ قبلَ ٥٠٠ عام. فهذا الارْتباط بالقرآن جَعَلَ شخصيّة اللغة تمتازُ بالثبات والاستقرار معَ قدرة هائلة على التكيّف معَ ما يَجدّ منَ الدلالات والمعاني وتوفير الألفاظ المناسبة لها. ولهذا الارْتباط بالقرآن تدفَعُ الأشواقُ الدينيّة والعاطفيّة مَلايينَ المُسْلمين المُنْتشرين في مُختلف أصْقاع الدّنيا إلى الاستماع إلى هذه اللغة، والتعبد بها، وتعَلم حُروفها الكتابيّة، وتشْجيع أبْنائهم على هذا ليُحْسنوا قراءَة القرْآن الكريم.

وَعَلى رأس هذه المَزايا خصائصُها الفنية، فعددٌ كبيرٌ من العلماء الذين دَرَسُوا اللغة العربية وتخصّصوا في أحد مُسْتوياتها، يُجْمعون على أنّ في اللغة العربيّة خصائصَ فنية تتفوقُ بها على غَيْرِها منَ اللغات، منها ما يَتصلُ بالبنيَة التركيبيّة اللغوية كالأصْوات والمُفردات والنحْو والدلالة، ومنها ما يَتصلُ بتاريخ احْتكاكها بالشّعوب واللغات الأخْرى. أمّا النّوْعُ الأوّلُ منْ هذه الخصائص فإنّ اللغة العربية، على المُسْتوى الصّوتي ، هِيَ أوْسَعُ اللغات الإنسانية في المخارج، فمَدْرَجُها الصوتيُّ يمْتدُ من الشفتين إلى الحَنْجرة، بينما ينحصرُ المَدْرجُ الصوتيُّ في مُعظم اللغات في مَساحة أقلَّ. وأمّا عَلاقة الأصْوات العربية بمَعانيها فتعودُ إلى مَنابعَ متعددة كمُحاكاة الأصوات الطبيعية وقواعد الاشتقاق، فبعضُ الألفاظ يُمكن استيحاءُ معناها عند النطق بها للمُصاقبة (المقاربة) بين اللفظ ومعناه، وأما الاشتقاقُ فكالاشتقاق الأكبر الذي يُعطيك معنى عاما يتحققُ في كل كلمة يوجد فيها صوْتان مُتكرران، ويُثلثهما صوتٌ آخرُ مُخْتَلفٌ، كقوْلنا: غَمَرَ، غَمَسَ، غمصَ، غمضَ، غَمَطَ، غَمّ، فهذه الألفاظ التي تشكلُ بابَ الغَيْنِ والميم وما يُثلثهما تتضمنُ مَعنى الإخفاء، وزِيادَة الصوت الثالث على (الغين والميم) يكونُ لتخصيص المعنى العام وتنوّعه (صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص٢١٠؛ وانظر: ياسر الملاح، المقدمة إلى علم المعنى في العربية، ص٥٤ وما بعدها)، وكالاشتقاق الصَّغير الذي تختلفُ فيه معاني الكلمات بما يضافُ إلى الجذر الواحد من أحرف الزيادة المعروفة (سألتمونيها)، وكذلك الاشتقاق الكبير الذي يقومُ على المعنى المشترك بين

تقاليب الكلمة، وهو أمرٌ معروفٌ وذائعٌ بين المُتخصصين في اللغة وعلم الصرف وعلم اللغة (ابن جني، الخصائص،٢/١٣٣). وأمّا على المُستوى الصّرفيّ فتمتاز العربية باتساع مُفرداتها اتساعا تتفوق فيه على أخواتها الساميات جميعا، وكذلك ما يَجتمعُ فيها من المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال، ورُبما يندرُ وجودُ مثل هذه الظاهرة في لغة منْ لغات العالم. فمثلا يندرُ أنْ نجدَ للأسَد في لغة غير العربية خمسُمائَة اسم، وللسيف ألفُ اسم، وللعسل ثمانين اسْماً، وللداهية أربعُمائَة اسم، وهكذا. ويساعدُ نظامُ الاشتقاق في اسْتخراج عدد كبير منَ المُفردات من المادة الواحدة، فمثلا يُمكننا اشتقاقُ أكثرَ من سبْعين كلمة من الجذر الواحد. (علم الصرف، من مؤلفات جامعة القدس المفتوحة، ط ٢٠٠٩، ص١٦٢).

وأمّا على المُستوى النّحويّ فقد بلغتْ دقة قواعد النّحْو العربيّ مبلغا يندرُ أنْ يكونَ له مثيلٌ في اللغات السامية أو اللغات الأخرى. و تتمثلُ ظاهرة الإعراب في أصوات مدٍّ قصيرة أو طويلة (الحركات القصيرة والطويلة) تلحق أواخرَ أغلب الكلمات لتدلَّ على وظيفة الكلمة في الجملة وعلاقتها بعناصرها الأخْرى. وأمّا على المُستوى الدلالي فإن اللغة العربية تمتاز بظواهر العلاقات الدلالية القائمة على أساس المعنى كالترادف والمُشترَك والتّضاد والتّعميم والتّخصيص والحَقيقة والمَجاز، وقد ألفَ العُلماءُ في هذا المجال تآليفَ كثيرة تدلُّ على غنى هذا المُستوى ووفرة مادته.

فإذا أضفنا إلى هذه المَزايا جُمْلة من المَزايا المُتَشَكِّلة منَ الاحْتكاك بالشعوب المُتَعَربة ولغاتها، وهي النّوْعُ الثاني منْ خَصائص العَرَبيّة الفنيَة كالدَّخيل والمُعَرَّب والبَلاغة والبَيان والإيجاز وعَلاقة العَربيَّة بأخَواتها السّاميّات، وغيْرها منَ اللغات العالميّة، اتضحَ لنا أنّ وَفْرَة هذه المزايا تدُلنا على نَموذج لغويٍّ فَذ يَسْتحقُ الإعْجابَ والتوقفَ عنده لتأمّله والإقبال على دراسَته. أمّا الدّخيلُ والمُعَرّبُ فقد اتسعت العربيّة لعدد كبير من الألفاظ المُقترَضَة والدَّخيلة إليها منَ اللغات الأخرى، وقدْ وُجدَ هذا في الشعر الجاهليّ والقرآن الكريم، وأصبحَ الأمرُ سُنّة لا تتخلفُ في حياة العربية لمُرونتها واتساعها حتى يومنا هذا. وتجْري على الألفاظ المُقترَضَة، بعد صياغتها صياغَة عَربيّة، مَا يجْري على الألفاظ العربية منْ أحْكام وقوانينَ تتعَلقُ بالإعْراب والتعْريف والتنكير وغيْرهما. وأمّا البَلاغة والبَيانُ فسمَة هي ألصَق ما تكونُ بالعرب والعَرَبية، وتكثرُ في النوادر العَربية القصص عن زيارة فصحاء العَرب إلى كسْرى وإعْجابه بفصاحَتهم بعْدَ أنْ يسْتمعَ إلى خُطبهمْ وأحاديثهم البليغة كما هو معْروفٌ عن أكثم بن صيفيّ وغيْره منْ البُلغاء. ومنَ البَدَهيّ المَعْروف أنه يكثرُ في اللغة العربية استعمالُ الألفاظ والتراكيب في غير ما وُضعت له لأغراض بلاغيّة خدمة للمعنى وتوضيحه والمبالغة في إبانته، أو إخراجه في أقل قدر منَ اللفظ ، أو عَرْضه عرْضا جَميلا جَذاباً. ويتضحُ هذا في المَجاز بأنواعه، وفي الكناية بأنواعها، وانتقال الدلالة بأنواعها. وقدْ كان لهذه الصُّوَر البلاغية أثرٌ كبيرٌ في سُمو الأساليب العَربية، وشدة تأثيرها في النفوس وقوة بلاغتها وحسْن بيانها وسَلاسَة تعبيرها ومُطابقتها لمُقتَضَيات الأحْوال. وقدْ ضرَبَ القرْآنُ بسَهْم وافر في هذا المَجال إذ كان له وَقعُ السحر في نفوس العرب، وكان مما اتّهمَ به الرسولُ، صلى الله عليه وسلم، أنه يقولُ كلاما يُفرقُ به بين المَرْء وزوجه، أو بيْن الأب وأبنائه، أيْ كما يفعلُ السَّحَرَة. وكان للمَجاز والنقل أثرٌ عَظيمٌ في اتساع العربية للعُلوم والفنون وللحَضارة والمَدَنية على اتساع مَجالاتها، ولم نشهدْ تعثرَ العربية في التعبير أمامَ أيّ مَظهَر منْ مَظاهر العلم أو الحَضارَة.

وأمّا الإيجاز فهو مَظهرٌ مَلموسٌ تماما في اللغة العربية كما يَتضحُ في أصْوات العلل، فالعللُ في اللغات الأجنبية تأخذ حجمَ الحَرف بينما في اللغة العربية لا تُسْتخدمُ إلا عند الضّرورة فوق الحرف أو تحتَه. ويعتبرُ الإدغامُ إيجازا لأنّه يَحلُّ فيه حرفٌ مَكانَ حَرْفين، وكذلك الإضافة. وقد تتكونُ الجُمْلة منْ حرف واحد فقط كقولنا: ع ، وهي جُمْلة أمْريّة لما يتضمنه الفعلُ من ضمير مُستتر، ومما قالهُ د. يعقوب بكر في هذا السِّياق:" إذا ترْجمنا إلى العربية كلاما مَكتوبا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقلَ من الأصْل بنحْو الخُمْس أو أكثر" (اللغة العربية ومكانتها بين اللغات،ص ١٢). وأمّا عَلاقتها بأخواتها السّاميّات فقد رجّحَ العُلماءُ أنّ العربية، باتساعها لخصائص اللغات السامية عامّة في الأصوات والجُذور والمُفردات والدلالات، وبزيادتها عليها في كثير منَ الخَصائص، هي أمُّ اللغات السامية جميعا، فاقترحَ بعضُهم تغييرَ مُصْطلح "اللغات السامية" إلى مُصطلح " اللغات العربيّة ".

فإذا أضفنا إلى هذا كلِّه ما أدْخلهُ المُتعَرِّبون، وهُمْ كثيرٌ كثيرٌ، إلى العَربية

وأساليبها وألفاظها وبلاغتها وبيانها ومَعانيها وأخْيلتها وصُورها منْ ألفاظ لغاتهم التي نشأوا عليْها وأساليبها وبلاغتها وبيانها ومَعانيها وأخيلتها وصُورها، وبخاصة الكتابُ المُبدعون، كما نَعْرفُ عَنْ عبْد الحَميد الكاتب وابن المُقفع وابن العَميد وغيرهم، وكذلك الشعراءُ المُفلقون كما هُوَ مَعْروفٌ عن مَرْوان بن أبي حَفصَة والطغرائيّ صاحب لاميّة العَجَم وغيْرهما، أدْرَكنا حَجْمَ التفاعُل الثقافيّ والاجْتماعيّ واللغويّ الذي كان بَيْن العَرَب والعَرَبيّة من جهة وبين هؤلاء المُتعربين منْ جهة أخرى، وأدركنا ضَخامة الحَضارة الناتجَة عن هذا التفاعُل وعَظمَتَها وعُمْقها وتنوّعَ مَجالاتها.

وبَعْدُ فإنّ المُدقق في هذه المَزايا يُمكنُه أنْ يلمَسَ بقوة ما للتعرّب والتعْريب منْ آثار قويّة في تنْمية شخصيّة اللغة العَربية وصَقلها وصياغتها صياغة مُتميزة عن اللغات الأخرى، لأنَّ تلك اللغات لمْ تخضعْ للتجارب التي خضعتْ لها العَرَبيّة في تاريخها القديم والمُعاصر. أمّا في التاريخ القديم فلمْ يَتَسَنّ للغة غيْر العَرَبيّة أنْ تحْملَ رسالة دينيّة عَظيمة كالإسْلام، وأنْ يَكونَ لهذا الدين كتابٌ يَنطقُ باللغة العَرَبية كالقرْآن الكَريم، كتابٌ يَتسابقُ الناسُ على تلاوته آناءَ الليْل وأطرافَ النهار، ولمْ يُنط بشعْب كالشعْب الذي حَمَلَ هذه الرسالة أنْ ينْطلقَ إلى العالمين يدْعوهم فيها إلى الأخلاق الفاضلة، وإلى الإيمان بالله الواحد الأحد، بيْنما كان كلُّ مَنْ جاءَ إلى هذه الأمَم التي استقرَ فيها الإسلامُ غُزاةً جبّارين ظالمين يُريدون الحُكمَ وفرْضَ الجَبَروت وتحْصيلَ الضرائب الباهظة ونهْبَ الخيرات، ولهذا فقط انتصَرَت العَرَبية واسْتقرتْ في قلوب الناس، فأقبلَ عليها المُتعربون يتخذونها لسانا ولغة حَضارة. وأمّا في التاريخ الحَديث فبعْدَ أنْ أصبحتْ هذه اللغة لغة حَضارة مَرْموقة، ولها تُراث لا يُنكرُ فضْله على الإنسانية كلها، أصْبحَ لهذه اللغة مُناصروها الذين لا يَألون جُهدا في الانتصار لها، والدِّفاع عنها، لأنها أساسُ فكرهم ومُنطلقُ وُجودهم العَقدي. وما دامَ الأمرُ كذلك، وما دامَ كتابُهم الخالدُ قد ضَرَبَ لهمْ مَثلا بارعا في اقتراض الألفاظ، ولمْ يَكنْ في هذا السّلوك اللغويّ ضَيْرٌ أو خطأ لأنه يُلبّي حاجَة ضروريّة في مَلء فراغ أو سَدّ حاجة، وما دام خلقُ التعاون والتعارف بين الأمم أساسا قويّا منْ أسُس هذا الدين تطبيقا لقول الله) وجَعلناكمْ شُعوبا وقبائلَ لتعارفوا، إنّ أكرمَكمْ عندَ الله أتقاكمْ) (الحُجُرات ١٣)، فما الذي يَمْنعُ هؤلاء المُتعربين أنْ يُزوِّدوا العَرَبية، لغتَهمْ الجَديدة التي اختاروها بمَلء الحُريّة والقناعة، ما حَمَلوه منْ لغاتهم القديمة من ألفاظ ومَعانٍ وصُورٍ تثري عَربيّتهم بَعْدَ أنْ يَصْقلوها بقوالب العربية التي أصْبَحتْ لغتَهم ولغة كتابهم الجَديد؟!؟! وذلك تطبيقا لمَبْدأ التعرُّب. هذان سلوكان كانَ لهُما آثارٌ كبيرة في تنْمية العَرَبيّة وإمْدادها بطاقات بناء مُثمرة ما دامَ لكل سُلوك وَجْهُه الإيجابيّ في الحَياة اللغوية العَرَبيّة بعامّة، مُنذ زمن بعيد إلى يَوْمنا هذا، وفي المُسْتقبل المَنظور. فأمّا التعرّبُ فقدْ أقبلتْ عليه شعوبٌ كثيرة، من غيْر العرب، عندما قرّرَتْ اتخاذ الإسْلام دينا ومَنْهجَ حَياة، فكان هذا التعَرّبُ في أطراف الجَزيرة العَرَبيّة، والعراق، وماليزيا، وإندونيسيا، وقرغيزيا، وأوزباكستان، وأذربيجان، وغيرها من الدول الإسلامية التي كانت تحْتَ مظلة الاتحاد السوفياتي، وأفغانستان، وتركيا، وصقلية، والأندلس، ومالطا، وغيرها من البُلدان التي اسْتظلتْ بظلال الدين الجديد، وأما التعْريبُ فهوَ آلة ضروريّة لتنْمية العَرَبية ولمُواجهة مُتطلبات النّمو والتجْديد وعَوامل الاحْتكاك بين الأمم، ويقومُ به أهلُ العربية منْ عَرَب ومُتعَربين رَغْبة في تنْمية لغتهمْ وَصَوْنا لها من التخلف والنكوص إلى الوَراء.

٢) التعرّبُ:

التعرّبُ مَصْدرٌ منَ الفعْل المَزيد (تعرَّبَ)، وهو فعلٌ خماسيٌّ مزيدٌ على وزن تفعَّلَ، ومن معاني هذا المَبْنى الصرْفيّ: ١) المُطاوَعة، أي الاسْتجابة لمَبْنى (فعَّل)، وكأنّ المَعنى عرَّبَ نفسَه فاستجابت حاله لذلك فتعرّبَ، أي أصْبَحَ عربيا، ٢) والتكلفُ، أي الرغبة في حصول الفعل له، واجْتهادُه في سبيل ذلك، ولا يكون ذلك إلا في الصفات الحميدة، أي أنه اتخذ قرارا بتعْريب ذاته مع بذل جهد في تحقيق هذا القرار في الواقع، ٣) والاتخاذ، أيْ اتخذ العربية لسانا ومَنهجا لغويّا في حياته (عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، ص ٣٩).

وكأنّ التعرّبَ، أيْ أنْ يُصْبحَ المَرْءُ عَرَبيّا، فيتحَوّل منْ حال إلى حال، أيْ من غير العُروبة إلى العُروبة، وأنْ يتخذ العربية لسانا في التعْبير اللغويّ في الخطاب والكتابة، وأنْ تكونَ اسْتجابتَه لهذا كله اسْتجابة طوْعيّة مَقصودة يُصاحبُها جهدٌ كبيرٌ من إلباس النفس ثوْبا لغويّا جَديدا، وأنْ يصْحبَ ذلك التحول ضرْبٌ من المُعاناة والحَزم والعَزم على انْتهاج طريق

جَديد في الحَياة اللغوية، وما يَصْحبُ ذلك من اسْتبدالِ عالمٍ عَربيّ بعالمٍ آخرَ لا يَمُتُّ بصلة إلى العالمِ الجديدِ الذي انتسبَ إليْه المُتعربُ، وكأنَّ هَذا الفعلَ يختصُّ بالإنسانِ ومَهاراته اللغوية، وهو ضربٌ من السلوكِ النابعِ من داخلِ الفرد، ولا يكون إلا طوعيّا إراديّا، فإنْ لمْ يكنْ طوْعيّا فسيُصاحبُه نوْعٌ من التكلف والصّراع النفسيّ الداخليّ الذي يُمازجُه نوعٌ من الحقدِ والبغضاء، كما يحْدث بين المستعمِر والمستعمَر. فقد يَكتسبُ المُسْتعْمَرُ لغة المُسْتعْمِر، ولكنّه لا يُقبلُ على ذلك إلا مُكرَها لفهْم هذا المُسْتعْمِر وللتفنّن في أساليب مُقاوَمَته.

ولا يَخْفى على المُدقق في هذه الظاهرَة ما هَيَّأته من تلاقح العُقولِ والأجْناسِ والأفكارِ والثقافاتِ بيْن الحَضارَة الإسْلاميّة بعامّة وبيْن الثقافة العَربيّة بخاصَّة فقادَتْ إلى ازدهارٍ فكريّ وحضاريّ انبَلجَ فجْرُه عن صَرْح ثقافيٍّ لا مَثيلَ له بيْن الأمم والشعوب. والذي يَسْتقرئُ حادثة المَغولِ في بَغدادَ عندما لمْ يَجدوا مادّة يَتخذونها جسْرا لعُبورِ خيولهم نَهْرَ دجْلة إلا الكتبَ يَعْجبُ من ضَخامة هذا الكم من الكُتبِ في تلك الفتْرة بحيْث يكفي لصناعة جسْرٍ بريّ تعبرُ عليه الخيولُ منْ ضفة نهرٍ ضخمٍ كنهرِ دجْلة إلى ضفته الأخرى !؟!

وقد أمَدَّ هذا التعربُ اللغة العربية بعُلماءَ كان لهُمْ آثارٌ مَلموسَة على اللغة العربية ونمُوها الكَبير، فأغنوا المَكتبة العربية بمُصنفات أصبحتْ مَراجعَ لا يُستغنى عنها في تعَلم العربية وتعليمها في ماضي هذه الأمة وحاضرها، وكذلك في المُسْتقبل القريب والبَعيد. والعَجيبُ أنَّ هذا السُّلوكَ اللغويّ اتخذه المُتعربون رَغبة في تعَلم العربية وطواعيَة وبشكلٍ تنافسيّ مُذهل، ولذلك فقد تَسَنم المُتعربون مَناصبَ مُهمّة في الدوْلة الإسْلاميّة، كما هو مَعروفٌ عن عبْد الحميد الكاتب في العصر الأمويّ وعن غيره منَ الكتّاب المُبدعين. ولا حاجة إلى تعْداد الأسماء المُبدعة في الحياة اللغوية العربية، فهم كُثر، ويكفي أن نذكرَ، على سبيل التمثيل لا الحصر، العالمَ اللغويّ سيبويه الذي ألف كتابَه الخالد (الكتاب) في النحْو والصرف، وهو كتابٌ لا يَستغني عنه طلبة العلم في هذا المجال، من العرب ومن غير العرب، فانظرْ إلى فضْله الأبديّ على العرب والعربية وطلبتها، ولوْ شئنا أنْ نعددَ الأسماءَ لطالَ بنا الأمرُ كثيرا.

ولنتمعنْ ما ذكرَه الدكتورُ شوقي ضيف وهو يَصفُ هذا الحَدَث الفريدَ في تاريخ الأمّة الإسْلاميّة، وَرُبّما في تاريخ البَشريّة كُلها، حَيْث يقولُ:" كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن المحيط الهندي والسودان جنوبا إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالا... وهي أوطان كثيرة، وكان يعيش فيها... شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجا قويا، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد." (العصر العباسي الأول ص ٨٩)

ثمَّ يُتابعُ حَديثه في هذا الجانب فيَقولُ:" وبذلك استطاع الإسلام- بتعاليمه السمحة- أن يحدث امتزاجا قويا بين العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة العربية، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انبسط عليها سلطانه تُسْلم، وإذا من بقوا على دينهم من تلك الأمم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة." (العصر العباسي الأول ص٩٠). وأمّا كلامُه عن ظاهرَة انتشار العربية، على الرغم من كثرة اللغات التي كانتْ تسيطرُ على ألسنة تلك الشعوب المنتشرة من الهند إلى الأندلس، كالفهلوية في إيران، والآرامية في العراق والجزيرة، والسريانية والنبطية في الشام، والقبطية في مصرَ، والبربرية في المَغرب، وكذلك اليونانية واللاتينية في مَناطق متعددة، فيقولُ:"... فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي، لا بين المسلمين وحدهم، بل أيضا بين غيرهم ممن بقي على دينه القديم..." (العصر العباسي الأول ص٩٠)... إلى أن يقول:" ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة، وكان هذا تطورا خطيرا حدث فيها، إذ أصبحت شعوبها جميعا عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة." (العصر العباسي الأول ص ٩١).

وقدْ كانَ لتعَلم الشعوب المَفتوحة، مِنْ مُسْلمين وغير مُسْلمين، لغة القرآن الكريم والحَديث النبويّ الشريف أنْ أقبلَ كثيرٌ مِنْ هذه الشعوب على التعرّب إقبالا مُنقطعَ النظيرِ كالفرْس، مثلا، الذين أكبّوا على تعَلم العَرَبية وإتقانها واتخاذها أداة تعْبير عمَّا يجولُ في قلوبهم وعُقولهم، فلا

غرابة إذا من كونِ جُمهورِ العُلماءِ والكُتاب والشعَراءِ، في تلك الفترة، منهم. ومما قاله د. شوقي ضيف في هذا المَقام:" ومما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس في هذا العصر... وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها." (العصر العباسي الأول ص ٩٣).

ومَنْ يَرْصد المَساحة الضّخمة التي نمتْ فيها الحضارة العربية الإسلامية يكادُ ينذهلُ للكثرةِ الكاثرةِ من الناسِ الذين دَخلوا في دينِ اللهِ أفواجا، ثمّ تحولوا بعد أنْ علمَهُمُ الفاتحون القرآن الكريمَ وسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى دعاةٍ للدينِ والحَضارةِ الجَديدةِ التي انتسبوا إليها، وأصبحَ منهم مُبْدعون وعُلماءُ في مُختلف فروعِ هذه الحضارة، فمن مُفسرين ومُحدثين ولغويين وشعراءَ وعُلماءَ في مختلف العُلوم ومُؤرخين ورَحّالة، وغيرِ ذلك منْ أصْنافَ المَعارف التي فجَّرها في أعماقهم هذا الانتماءُ الجديدُ. وعندما يَنتمي الإنسان إلى هذه الحضارة الجديدة لا يُصبحُ له همٌّ إلا إرضاءَ اللهِ، بإبداعِ ما يُفيدُ الأمّة والإنسانية بعامّة. ولهذا كان الإبداعُ الحضاريّ المُنتجُ في تلك الفترة يثيرُ الدّهشة والإعجابَ لما فيه من تسابقٍ على تحقيقه بدون أيّ دافعٍ ماديّ نفعيّ.

وليَتخيّلْ كلٌّ منّا هذه المَساحاتِ الشاسعَة منَ البُلدانِ في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وما احْتوتْ من شعوبٍ وأجْيالٍ تدافعتْ عبْرَ تاريخ هذه الأمّة الطويل، وما صَدرَ عنها منْ نشاطاتٍ في مُختلف أنواعِ النشاطِ البشريّ الإيجابيّ، وبخاصةٍ في العُلوم والآداب واللغات؛ تخيلْ أن هذه الطاقات قدْ أصْبحتْ ملكا للأمّة الإسْلامية، وأن أقدسَ لغة لديها هي اللغة العربية، أليسَ هذا وحْدَه كافيا لتسْجيلِ نصْرٍ مُؤزرٍ في تنميةِ الأمَمِ وتحقيقِ طموحِها في مُسْتويات إنسانيةٍ متعددة؟!؟ وما زالت هذه المَساحاتُ والشعوبُ، وما صدرَ عنها منْ نشاطٍ علميّ وفكريّ وثقافيّ، مُنتمِية إلى مُعسكرِ الحَضارةِ الإسلامية بغضِ النظرِ عَمّا نحن فيه الآن من أحْوالٍ سياسيّةٍ لأنّ الكفة راجحَة لصالحِ الحَضارةِ الغربيّة. ولا رَيْبَ في أن هذه المَساحاتِ الواسعَة لوْ كانتْ لحضارةٍ أخرى غيرِ الحضارةِ الإسلاميّة لكان هذا خسارة فادحَة في مَوازينِ الحَضاراتِ العالميّة !؟!؟

وإنَّ مَنْ يتصفح ويتدبر الخُلاصة الفكرية لهذا الامْتزاجِ الحَضاريّ الذي أثمَرَهُ التعرّبُ الذي وَصَفناه قبْلَ قليل، في المَظانّ والكتب التي عُنيتْ بهذا الرّصْد، ككتاب "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان، أو كتاب " تاريخ آداب اللغة العربية " لجورجي زيدان، أو كتاب " تاريخ الأدب العربي " لعُمر فروخ، أو كتاب " الموسوعة الإسلامية "، أو كتاب " تاريخ الأدب العربي " لشوقي ضيف، وبخاصة الأجزاء (٥-٩) التي وسَمَها بعُصور الدّولِ والإماراتِ التي نتجتْ عن تمَزقِ العالمِ الإسْلاميّ، والتي جَمعَ فيها خلاصَة ما أنتجتْه هذه الشعوب: في السياسةِ والاجْتماعِ البشريّ، وفي الثقافة من حركة علميةٍ وترجمةٍ وعلوم لغويّةٍ وعُلومٍ إسلاميةٍ كالفقه والتفسيرِ والحديثِ النّبويّ والقراءاتِ وعلم الكلامِ والتاريخ، وفي الشعرِ والشعراءِ، والنثرِ وأنواعه، إنّ مَنْ يتصفحُ هذه الخُلاصة لا يمْلكُ إلا أن يعجبَ وينذهلَ لهذا الكم الهائلِ من الألوانِ الفكريةِ المُتنوعة وأعدادِ العُلماءِ والكتاب والشعراءِ الذين أنتجتهم هذه الحَضارة المنبثقة عن مسألة التعرُّب. ولمْ ينتجْ عن هذا أنهمْ قاموا بدوْرٍ كبيرٍ معطاءٍ في تثبيت هذه الحضارة فحسْبُ، بلْ إن ما قاموا به ظلَّ عاملا مُثمرا في الفكرِ والحَضارةِ التي انتسبوا إليها حتى يومنا هذا وإلى الأبد بمَشيئة اللهِ. ولا يُمْكن لأيّ كان من الباحثين، إذا أرادَ أنْ يدرسَ الحَضارة الإسْلامية في أيّ مَجالٍ من المَجالات الفكرية المُتعَددة، إلا أنْ يقفَ بتأنٍ عند هذا العطاءِ الحضاريّ المُمْتاز.

ولقد أسْهبْتُ في وصْفِ ما أنتجَتْه تلك المَرْحلة الزمنية، منْ عزٍ لغويّ وسُلطانٍ ثقافيّ، حتى أبيِّن للذين يتوارَوْن اليَوْمَ من تلك الحَضارة العَظيمة، ورُبّما يخجَلُ بعْضُهم منْ ذكرها أو من الاعْتزازِ بها، ويُحاولُ أنْ يظهرَ بمَظهرِ المُتفوقِ على أقرانه حينما يقتاتُ على الفتاتِ اللغويِّ الذي تلفُظه موائدُ الآخرين، وأنَّ العربيّة التي لا يُقيم لها أهْلها اليَوْمَ وَزْنا كانت اللغة الوَحيدة المُهيْمنة على السّياقِ الحَضاريّ في تلك الفترةِ الذهبية منْ تاريخِ أمّتنا، وأنّ الناسَ، من غيْرِ العَرَب، في ذلك العَصْرِ كانوا يتفاخرون بالعربيّة إذا عَطروا ألسنتهمْ بشيْءٍ منها، وإذا كتبوا بها، وكانوا يَتسابَقون على تعلمها والتحَدث بها لأنّ سُلطانها تجاوز الآفاق، وغزت القلوبَ غزوا مُنقطعَ النظيرِ. ولقدْ عَجزنا نحن اليَوْمَ عنْ فهْم ذلك التراث وعن التمسك به لأننا لم نعشه، ولم نُقبلْ عليْه، لما انتابنا من هزيمةٍ نفسية خطيرةٍ يجبُ علينا الاسْتشفاءُ منها قبلَ فواتِ الأوان. لقدْ أصْبحَ تُراثنا ثقيلا عليْنا على الرَّغم منْ كوْنه تُراثا عَميقا، ونما نموّا طبيعيّا بَعيدا

عن أيّ قسْرية أو جبريّة. ولقدْ أحْبَبْتُ بسْطه كذلك بصورة عفوية ومفهومة حتى أبين لهؤلاء أنّ الطموحَ إلى تحقيق مثل ذلك النموذج ليْسَ مُسْتحيلا، وإنما يَصْعبُ تحقيقه في بيئات تسودُها الأنانيّة الضيّقة وانعدامُ الهِمَم العالية الطامحة إلى العَلياء ومَجْدِها التليد.

٣) التّعْريب:

وأما التعْريبُ فهو مَصْدرُ الفعْل (عرَّب)، وهو فعْلٌ رُباعيّ مَزيدٌ على (فَعّلَ)، وهذا المَبْنى (فعّل) له مَعانٍ صَرْفيّة كثيرة، كالدَّلالة على التكثير والمُبالغة، والدلالة على التشبّه بشيْءٍ آخرَ، والصّيْرورَة إليْه، فعرّبَ أيْ جَعَله عَربيّا، كما نقولُ: حَجّرَ، أي صارَ حَجَرا أو كالحَجر، وتشتركُ هذه الكلمة معَ كلمة أعْربَ في الجَذر، وكأنهما يُشيران معاً إلى مَعْنى الوضوح والإفصاح الذي هو الأساسُ في اسْتخدام اللغة بعامة، واللفظ المُفرد بخاصة سواءٌ أكان عَربيّا أصليّا أمْ كان مُقترَضا من اللغات الأخرى كالمُعَرّب. ومن هذه المَعاني الصّرْفيّة الدلالة على النسْبة كأنْ تكفّرَ فلانا، أي تنْسبُه إلى الكفر، وغير هذا من الدلالات. وهذا الفعلُ (عرّبَ) مَصْدرُه التفعيلُ، والتفعيلُ في اللغة من مَعانيه الصّيْرورة، أيْ التحَولُ من حال إلى حال، وعليْه فإنّ التعْريبَ هو تحَوّلُ اللفظ غيرِ العربيّ إلى لفظ عربيٍّ صَوْتا وبنية ونحوا ودلالة. وأما المَعْنى الاصْطلاحيُ، فقد وردَ في قاموس لسانِ العرب لابن منظور " تعريبُ الاسم الأعجميّ أنْ تتفوهَ به العربُ على منهاجها، عربته العربُ، و أعربتْه أيضا... وعَرُب لسانه... أيْ صارَ عرَبيّا " (لسان العرب، مادة عرب). وعَليْه فالتعْريبُ نقلُ اللفظ من العَجَمية أيْ غيْر العربية إلى العربية، والمشهورُ فيه التعريبُ، وسَمّاه سيبويه وغيرُه إعْرابا، فيقالُ حينئذ مُعَرّبٌ ومُعْرَبٌ. وخُلاصَة الأمْر أنّ التعْريبَ هو استعمالُ لفظ غيرِ عَربيٍّ في كلام العرب، وإجراءُ أحْكام اللفظ العربيّ عليه، وهو عملية تغيير لغوية تشمَلُ بنية اللفظ المُعرب في جَوانبها الصّوتية أو الصّرْفية أو التركيبية أو الدلالية بحيث تتناسبُ معَ الصّيَغ العَرَبيّة وطريقة بها وضبْطها.

وَيكونُ التعْريبُ سُلوكا لغويا خارجيّا مَفروضا على المَرْء، فإذا كان كذلكَ فسيُصاحبُه ضرْبٌ منَ الإكراه والجَبْر على الاسْتجابة لهذا السّلوك، كأنْ تفرَضَ اللغة على قوْم فرضا كما حَدث في مُحاولة تتريك العَربَ في القرن التاسع عشر، عصرِ ظلمات الدولة العُثمانيّة، وكما حَدث في الجَزائر عنْدما فرضَ الاستعمارُ الفرَنسيّ الفرنسية على الجزائريين لمَنْعهم من التواصل مع لغتهم العربيّة. وقدْ يكون آلة من آلات تطوير اللغة العربيّة لتزويدها بثرْوَة لفظيّة مُقترَضة من اللغات الأخرى للحاجَة الماسّة إلى المُصْطلح العلميّ، كما حَدث في العصْر العباسيّ والعصْر العَرَبيّ الحَديث.

وَقدْ يَتسعُ مَفهومُ التعْريب ليشملَ الترجمة – وإن كان هناك اختلافٌ دَقيقٌ بين مَفهومي التعريب والترجمة من الناحية الاصْطلاحيّة، ومن ناحية أنّ بعضَ الكُتّاب، لصُعوبة النقل الدقيق منْ لغة إلى لغة أخرى، يَرى أنّ الترجمة ضرْبٌ من الشّرْح والتفسير- أيْ نقلُ مَضامين المَراجع العلمية والأدبية من اللغات غيرِ العربية إلى العَربية. ومن اتساع مَفهوم التعريب الاصْطلاحيّ كذلك اتخاذ المَرْء العربيّة لسانا ولغة في العلم والحياة، فيفكرُ بها، ويتعلمُ بها، ويعلّمُ بها، ويكتبُ بها رسائله وتقاريرَه التي درجَ كثيرٌ من العرب، هذه الأيامَ، على كتابتها بالإنجليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية، وأسفاه !!! ولهذا يُصبحُ الهمَ الأكبرَ للتعْريب تعريبُ التعليم والإدارة والتجارة والتفكير والسياسة والإعلام والعناوين والإعلانات واللوحات التجارية وكل مناحي الحياة، ويعتبرُ موضوعُ التعريب، اليومَ، وبعدَ أنْ كسفتْ شمسُ الحضارة العربية في الحياة المُعاصرة، إحدى قضايا العرب المُهمة المُعاصرة.

وفي ظاهرة التعريب دلالات إنسانيّة عَميقة في الأسْباب والنّتائج، فأسْبابُ التعْريب نواميسُ كوْنيّة لا تتخَلفُ، وهي تتلخصُ في ضرورة احْتكاك الأمم ببعضها، إذ من المُسْتحيل أنْ تكونَ حَياةَ إنسانيّة طبيعيّة في مَنْأىً عن الاحتكاك بالأمم الأخرى التي تقومُ بيْنها عَلاقاتٌ سلميّةَ أو عَلاقاتٌ غيْرُ سلميّة. ولهذا يقولُ الدكتورُ علي عبد الواحد وافي في عن احْتكاك اللغات ببعْضها: "... من المُتعَذر أنْ تظلَ لغة بمأمَن من الاحتكاك بلغة أخرى... " (علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ٢٥٢). وإذا كان العقلُ المُتنورُ قد فهمَ سُنَنَ الحَياة في التغيّر والتطوّر، فمن المُسْتحيل أنْ يتحقق تطورٌ ما لأيٍّ جانب منْ جَوانب الحياة، ومنها اللغة، بغير التواصُل معَ الآخرين، وبغير الاحتكاك العميق بهم، ولهذا يذهبُ فندريس في كتابه (اللغة) إلى أنّ تطورَ اللغة المستمرَ، في مَعْزل عن التأثير الخارجيّ، يُعدُ أمْرا مثاليّا لا يكادُ يتحققُ في أيّ لغة. إذاً فالاحتكاكُ أمرٌ أساسيٌ لحياة أيّ لغة حياة طبيعيّة مُتفقة

مع الأسباب الكونية في تطور اللغات. وأمّا النتائجُ المُنبثقة عن هذا الاحتكاك فتتمثلُ في قبول الآخر، وفي الاستفادة منه، تطبيقا لقانون الأخذ والعَطاء أو التأثر والتأثير، فإنْ لمْ يكنْ ذلك عن رضا فإنّه يَحصلُ رغمَ أنف المرء، وفي هذا يؤكدُ فندريس، في مَعْرِض حَديثه عن ضرورة الاحتكاك البشريِّ لتحقق التطوّر اللغويِّ أنّ الأثرَ الذي يقعُ على لغة ما منْ لغات مُجاورة لها، كثيرا ما يَلعبُ دَوْرا مُهمّا في التطور اللغويِّ لأنّ احتكاكَ اللغات ضرورة تاريخيّة، ولأنّ احتكاكَ اللغات يُؤدي حَتْما إلى تَداخلها . (فندريس، اللغة، ص٤١٩ وما بعدها).

وعَليْه، فإنّ التعْريبَ سُنّة لغويّة كوْنيّة إيجابيّة لا يُخشى منها على اللغة المُقترضَة، و لمْ يَفعلْ أهْلُ العربية هذا إلا لضَرورة اجْتماعيّة، ولذلك نقولُ لأولئك الذين يُنَفرون منَ التعْريب: إنّ التعْريبَ نعْمَة كبيرة على اللغة العربية، وإنّ هذه الألفاظ المُعَرّبة، مَهْما كبُر حجْمُها، فإنها لنْ تكون إلا كمنْ يضعُ قليلا من الملح في نهر لغويٍّ عربيٍّ مُتدفق، فهلْ يَضيرُ ما وُضِعَ من شيء قليل هذا النهرَ شيْئا؟ وهلْ يُغيرُ مَجْراه أوْ لوْنَه؟ إنّ هذا لنْ يَحْدث أبدا، وبخاصة إذا كان قدْرُ هذا المُعرّب بحجم الضرورة والحاجة. وانظرْ، أخي القارئَ الكريمَ، إلى هذه الدراسة الطريفة عن اللغة الفرنسية، وخُلاصَتُها: " فحصَ أحدُ الباحثين من اللغويين المُحدثين مُعجما فرنسيا يشتملُ على ٤٦٣٠ كلمة، فوجدَ منها ٢٠٢٨ كلمة فقط من الأصلِ اللاتينيِّ الذي يُعدُ المصدرَ الأصيلَ للغة الفرنسية، ووَجَدَ ٩٢٥ من اللغة اليونانية، و٦٠٤ من الألمانية، و٩٦ من الكلتية، و١٥٤ من الإنجليزية، و٢٨٥ من الإيطالية، و ١١٩ من الإسبانية، و١٠ من البرتغالية، و ١٤٦ من العربية، و٣٦ من العبرية، و٤ من الهنغارية، و٢٥ من السلافية، و ٣٤ من التركية، و٦ من لغات إفريقية، و٩٩ من اللغات الآسيوية، و٦٢ من اللغات الأمريكية الهندية، و٢ من اللغة البولينيسية " (نصرت عبد الرحمن وزميلاه، اللغة العربية ٢، ص ٢٧٣). أرايتَ إلى هذه الإحصائية المُثيرة ؟ فأكثرُ منْ ٥٠٪ من هذا القاموس الفرنسيِّ مُقترَضٌ منْ مُختلف لغات الدُّنْيا، فهلْ ضجَّ الفرنسيون منْ هذه الإحصائية؟ أمْ هلْ أنكروا هذا الاقتراضَ؟ لا،لا، بلْ إنّ أحدَهم صَنعَ مثلَ هذا القاموس إمْعانا في إعطاء الفرنسية دَفقة حياة وتحضر وتواصُل مع لغات الدنيا كلها.

وقد استخدَمتْ أمَّتُنا التعْريبَ في وقت مُبكر منْ حياتها لأنها لمْ تكنْ أمَّة مُنعَزلة حتى في الجاهليّة، ففي هذه الجاهلية اتصَلتْ بمَنْ جاورَها من الأمم كالفرس والأحْباش والروم والسريان والأنباط وغيرهم، ومن الطبيعيِّ أنْ يتبعَ هذا الاتصالَ احْتكاكٌ لغويٌّ بين العَربيّة وبين لغات تلك الأمم. ففي الشعر الجاهليِّ وُجدتْ ألفاظٌ مُعَرّبَة كثيرة، وفي القرآن الكريم ألفاظ مَعَرّبة، ثم أخذتْ وتيرة التعْريب تشتدُ وتنمو عندما تعربتْ شعوبٌ بأكمَلها في العُصور الإسْلامية المُتتابعة، ولمْ يخجَلْ أجْدادُنا من هذا أبدا بَلْ ألّفوا المَعاجمَ المُتخصّصة في التعْريب، فكان كتابُ (المُعَرَّب من الكلام الأعجميِّ) للجواليقيِّ، وكتابُ (التذييلُ والتكميلُ لما اسْتُعْمِلَ من اللفظ الدَّخيل) للبَشْبيتي، وكتابُ (شفاءُ الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل) للخَفاجيِّ، وغيرُ هذا كثيرٌ، فمنه ما رَصدَ المُعرّبَ في القرآن الكريم، ومنه ما رَصدَ المُعرَّبَ من لغة بعينها، وهكذا.

ومن البَدَهيّ أنْ لا يخرجَ التعْريبُ عن حُدوده المقبولة وأنْ لا يزيدَ المُقترَضُ على الأصل، فإن كان هذا أصْبَحَ التعريبُ كمنْ يسْتبدلُ لغة بأخرى، وهذا سُلوكٌ غيرُ مَقبول بَتاتا لما فيه من مَس بهُويّة الأمّة وشخصيّتها واسْتقلالها، فالأصْلُ فيه للعربية ومنهاجها في التعبير وَصياغة الألفاظ، وقد كانت العربيّة قد فرضَتْ سُلطانَها على القلوب والعُقول فرْضا جَعَلَ مَن اختارَ التعَرّبَ من الأمَم الأخرى يرْغبُ في العربية، ويُقبلُ على اتخاذها لسانا، لأسْباب كثيرة منها قوة السّلطان العربيّ وإيمان العرب بلغتهم وتشجيعُهم على نشرها ونشاطهُمْ في تعليم القرآن الكريم وسُنة النبيّ الكريم، ولا يحْصُلُ فهمٌ لهذين المَصْدَرَيْن إلا باللغة العربيّة. ولوْ كان في مَنْ يَحْملون هذه اللغة الشريفة من خلال تنفرُ من الدّخول في الإسْلام أوْ في تعَلم العربية لما كان ما كان منْ إقبال لا نظيرَ له على الدُّخول في الإسلام واتخاذ العربيّة لسانا. ولذلك فمن الخيْر للعَرَب هذه الأيامَ الخطيرة وما يتبعُها من أيام أنْ يَدْرُسوا بعمق الأسبابَ التي قادتْ إلى تحَقق هذه التجْربة النادرة من التعرُّب الجَمْعيّ لتلك الأمَم حتى يختطوا لأنفسهمْ سُبُلا جَديدة جَذابة لنشر لغتهم ولدَفعَ العالمين في عَصْرنا دفعا إلى تعَلم العَربية والإقبال عليْها لعَلّ الله يفتحُ أبوابا جَديدة من التعَرّب الذي سيُغْني العرَبية والحَضارة العَربيّة وسَيقودُها إلى الرُّقيّ الفريد. ولعَلّ في ما أقرتْه الأمَمُ المُتحدة من اعْتماد العَربية إحدى اللغات الرسْميّة المُتحدّث بها منْ على منصّتها الرسْميّة

إرْهاصا يَشي بالخير لِمُستقبَل هذه اللغة ومُستقبَل حَضارَتها العَريقة.

وقد شرحَ سيبويه في الكتاب، والسيوطيُّ في مُزْهِره، وغيرُهما، أقسامَ اللفظ المُعرب وَفقَ التغيير والإلحاق فكان على صُورتيْن، هما:

الأولى: المُتغيرُ وهو نوعان: الذي تغيَّرَ ولم يُلحَقْ بالأبنية العربية نحو آجر وفرند، والذي تغيرَ وألحِقَ بأحد الأبنية العربية نحو: درْهم.

الثانية: غيرُ المُتغير وهو نوْعان كذلك: الذي لم يتغيَّرْ ولم يُلحقوه بأبْنيتهم نحْوَ خراسان وكرْكم وقهرمان، والذي لمْ يتغيرْ وألحقَ بأحد الأبنية العربية نحْوَ خُرّم.

وممّا عُنيَ به علماءُ العربية، في موضوع التعْريب، الالتفاتُ إلى مُسْتوياته في التغيير الحاصل على اللفظ المُعَرَّب، فسيبويه نبَّه على بعض جَوانب التغيير الصَّوْتيّة والصّرفية، وكذلك فعَلَ غيرُه ممنْ وقفَ عندَ هذه الظاهرة اللغوية الفريدة التي تغْني الثروة اللفظية العربية إغْناءً مُدْهشا لتكفَ العربية عن الافتقار إلى لفظ احْتاجَه الناطقُ العربيُّ في أيِّ مَجال من المَجالات العلميّة أو المُجْتمعية. غيْرَ أنّ أفضلَ مَنهج لدراسة هذه المُسْتويات هو الذي يقفُ عند هذه الظاهرة وَقفة يُقرُّها علمُ اللغة الحديث ودراستُه للنظام اللغويّ بعامّة، وهي التي تقومُ على تفريع الظاهرة وَفقَ المُستويات الصوتية والصرْفية والنحْوية والدلالية.

فعَلى المُسْتوى الصوتيّ، غيَّرَ الناطقون بالعربية الأصواتَ غيرَ العربية في الكلمات المُقترضَة إلى ما يقتربُ منها في العربية، كتغييرهم صَوْتَ(v) اللاتينيّ إلى صَوْت الفاء أو الباء لأنهم تخيَّلوه بيْنهما، كقولهم: فرند وبهلوية، وما زالَ الأمرُ، هذه الأيامَ، على هذا النحو فيقولُ الناسُ: فولفو لنوع السيارة المَعروف volvo، وكذلك صوتُ (G)حَوّلوه إلى صوت الجيم أو القاف أو الكاف، كقولهم: جُلنار و قهرمان، وكذلك يفعلُ الناسُ، اليومَ، فيقولون: كراج و كربج وغيرهما. ويُمْكن أنْ يُقعَّدَ لهذا المُسْتوى الصوْتيِّ وتغييراته على هذا النحْو:

١) إبدالُ حركة بحركة: فقالوا: دُستور وأصْلها الفارسيُّ دَستور.

٢) إبدالُ حرف بحرف: فقالوا: جَوْرب وأصْلها كوْرب.

٣) إسقاط حرف أوْ أكثرَ: فقالوا: فهرس وأصلها فهرست.

٤) زيادة حرف: فقالوا: ديباج وأصْلها ديبا.

٥) إبدالُ حَرْفين بحرفين أو أكثر: فقالوا: فالوذج معربُ بالوده وأنموذج معربُ نموده.

٦) إبدالُ صوت وزيادة آخرَ: فقالوا: نيسابور معربُ نشابور.

٧) تغييرٌ في النظام المَقطعيِّ: فقالوا: فارس معربُ pars فغيروا التقاءَ الساكنين في الكلمة الأجْنبية، لأنّ العَرَبية لا يَقبلُ نظامُها المَقطعيُّ التقاءَ ساكنيْن، كما هو واضحٌ في التقاءَ rs من الكلمة الأجنبية.

٨) قبولُ الكلمة الغريبة بدون أيِّ تغيير: فقالوا: كركم و خُرّم وخراسان كما هي في الأصل الأجنبيِّ.

وعلى المُسْتوى الصرفيِّ طوّعوا ما اقترضوه من اللغات الأخرى للنظام الصرفيِّ العَربيِّ، فأضافوا العلاماتِ المُميزة للتأنيث والتذكير والتعريف والتنكير إلى الكلمات المُعرَّبة، واشتقوا الأفعالَ والأسماءَ، فقالوا: الديباجُ بإدخال لام التعريف، واشتقوا الفعلَ دَرْهمْتُ منْ درْهَم. وما زالَت العربُ تفعل هذا اليومَ، فهمْ يقولون: الباصُ بتعريف كلمة bus المُعَربة بـ باص، وتلفنْتُ المُشتقة من telephone، وهكذا. والعجيبُ أنّ عُلماءَنا الأفاضلَ من القدماء قدْ تنبهوا لهذا كله، فقالَ ابنُ جنّي في الخصائص: " إنّ ما أعربَ (أي: عُرِّبَ) من أجناس الأعجمية قدْ أجْرَتْه العَرَبُ مَجرى أصول كلامها؛ ألا تراهمْ يَصْرفون في العَلم نحو آجر وإبرَيْسَم وفِرند وفيروزج وجميع ما تدْخله لامُ التعْريف... فجرى في الصرف ومنعه مَجْراها... وقال أبو عليّ: إذا قلتَ: طابَ الخشكنانُ، فهذا منْ كلام العرب". (الخصائص،١/٣٥٧) والنتيجة، في هذا الباب، أنّ ما عَرّبتْه العَربُ من ألفاظ أعجمية أصبحَ عَرَبيّا تجْري عليه أحكامُ اللفظ العربيِّ منْ إعْراب وتعريف وإضافة وتذكير وتأنيث وتثنية وجمع وغير ذلك منْ أحْكام، كما يذهبُ إلى هذا السيدُ عبدُ القادرِ المَغربيّ، وكما أقرّه أجْدادُنا باستعْمال ما عَرّبوه استعمالَ الألفاظ العربية تماما. هكذا كان الأمرُ في الشعر الجاهليّ، وفي القرآن الكريم، وفي ما جاءَ منْ نصوص عربية في العصور اللاحقة، وكفى بهذا دليلا وبُرْهانا على أنّ هذه الآلة من آلات تنْمية الثروة اللفظية في العربية تمدُّ العربيّة، وَفقَ الحاجة، بما لا يُحْصى من الألفاظ الجَديدة المُقترَضة منْ جميع أمَم الأرض الآن، وفي المُسْتقبل المَنْظور.

وعلى المُسْتوى النحْويِّ فأهمُّ ما يميز العربية، في هذا المستوى، ظاهِرَةُ الإعراب، وعليْه فإنّ اللفظ المُعرّبَ إذا خضَعَ لهذه الظاهرة فعُلماؤنا اعتبروه

عَربيّا، وقدْ مرَّ بنا قبلَ قليل، في هذه المقالة، عن ابن جنّي يروي عن أبي عَليٍّ أستاذِه، أنكَ إذا قلتَ: طابَ الخشكنانُ، فهذا من كلام العرب، لإجْرائك الإعرابَ عليه. ومن بابِ النحوِ كذلك الممنوعُ من الصرف، ولذلك فإنّ عددا من الألفاظ المُعَرّبة مُنِعَتْ من الصّرْف لعَدَم تمكّنها من العربيّة وعَلميّتها، فاعتبرها العربُ بذلك عربية جَرَتْ عليْها أحْكامُ المَمْنوع من الصَّرْف. ومن هذا الباب كذلك ما دَخلَ إلى العَرَبية من جُمل أو تراكيبَ فاستقرتْ فيها دون أنْ نعرفَ من أيِّ لغة اقتُرِضَتْ، أو قدْ نعرفُ، كما هو الحالُ عنْ بعْض التراكيب التي رَجّحَ بعضُ الدارسين أنها اقتُرِضَتْ من الإنجليزية أو الفرنسية، كقولنا: يَصْطادُ في الماءِ العكِر. وقد أجازَ مَجْمعُ اللغة العربية في القاهرة هذا الأمرَ وعبّرَ في قراره عن دخوله تعبيرا جَميلا، عندما قالَ: " البابُ مفتوحٌ للأساليب الأعجمية تدْخلهُ بسَلام...". وقد نبّه على هذه التراكيب الدَّخيلةِ عَدَدٌ من الباحثين في كتب مَنشورة مثل كتاب الدكتور إبراهيم السامرائي " فقه اللغة المقارن "، وكغيْره من الكُتب لكُتاب آخرين.

وعلى المُستوى الدلاليّ، فقد اقترَضتْ العَرَبيّة الألفاظ المُعَربة، ثمّ ألحَقتْها بنسَبها العَربيِّ فأكسَبَتْها مَعنى التصق بها، فأصبَحتْ جُزءا أصْليّا من الثروة اللفظية العربية، سواءٌ أكانَ هذا بالمَضمون الأصْليّ الذي كانت الألفاظ المُعَرَّبة تحْمله قبْلَ التحاقها بالعَرَبيّة أمْ كانَ هذا بالمَعْنى الجَديد الذي أعطتْه العربيّة لهذا اللفظ. ومن الأمثلة الجليّة في هذا الباب كلمَة "الديوان" التي وفدَتْ إلى العربية من الفارسيّة بمَعْنى مُجْتمَع الصُّحُف، أو الدَّفْتر، غيْرَ أنها اليومَ تكتسبُ دلالات كثيرة غيرَ تلك التي دخلتْ بها إلى العَرَبية نذكرُ منها الكتابَ الذي يَجْمعُ بين دَفتيْه أشْعارا، كقوْلنا ديوان المتنبي أو ديوان شوقي وهكذا، وغيرُ هذا المعنى كثيرٌ. وغنيٌّ عن التعريف ما تزدَحمُ به لغتنا المُعاصرَة مِنْ ألفاظ أجْنبية اكتسَبَتْ دلالات من العَربية أو مِنْ لغتها الأصْليّة، وأيْسَرُ مَثل على هذه الظاهرة كلمَة الديمُقراطيّة التي لا يَكادُ لسانٌ من ألسنة العرب المُعاصرين يَنجو من سُلطانها.

وعلى الرَّغم من هذا كله، فإننا نجدُ من بَيْننا مَنْ يتعصبُ للعربيةِ تعَصُّبا يَحْرمُها من هذا الخيْر العَميم الذي يَجْلبُه التعَربُ والتعْريبُ للعربيّة. فهُناك مَنْ يأنفُ مِنْ دُخول المُتعربين في مَيْدان العَربيّة ويَحتقرُهمْ لأنهمْ في بداية طريقهم لا يُتقنونها، وليْسَ مِنْ شك في أنّ هذه التصَرُّفات تقفُ في طريق باب رَحْب من أبْواب التنمية اللغويّة للعربية. ويجبُ أنْ يُدْرِكَ العربُ أنّ اللغة العربية هي لغة الله التي اختارَها لسانا لكلامه الكريم، وعليْه فإنها لغة العالمين والناس أجْمعين، وإذا أرادَ العربُ أنْ يَفسَحوا الطريق لانْتشار الإسْلام في العالم فيَجبُ عَليْهمْ أنْ يَبْذلوا جُهودا جَبّارة لتنتشرَ اللغة العربية في كل مَكان مِنْ هذا العالم.

كما أنّ هُناكَ مَنْ يُنكرُ وُجودَ ألفاظ من أصْل غير عربيّ في القرْآن واللسانِ العربيّ بعامّة، فأبو عُبيدة مَعْمَرُ بْنُ المُثنّى مِنْ عُلمائنا القدَماء يَذهبُ إلى أنَّ مَنْ زَعَمَ أنَّ في القرْآن لسانا سوى العَرَبيّة فقدْ أعْظمَ على الله القوْلَ، لأنّ الله يقولُ في القرْآن:(بلسان عَرَبيٍّ مُبين) ، ويذهبُ إلى هذا المَذهب من عُلمائنا المُحْدثين الشيْخ أحمد شاكر (رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص ص٣٦٠-٣٦١)، ولا يَخفى على المُدقق ما في هذا الرأي مِنْ تعَصُّب وتسَرّع. إنّ مَنْ يأنفُ مِنْ وُجود ألفاظ مُعربة في اللسانِ العربيِّ تعصُّبا أوْ جَهْلا أو خوْفا على العربية، إنما هو يتوهمُ ويقعُ فريسة لخيال مُشوَّش مُخالف لسُنن الحركة المُجْتمَعيّة في الكَوْن، ولحَقائق الاحْتكاك اللغويّ فيه، فالحراكُ المُجتمعيُّ والاحْتكاكُ اللغويّ سُنّة كوْنيّة وقانونٌ اجْتماعيّ لا يُمْكن لأحد أنْ يَقفَ في وَجْهه أو يوقفَ جَبَروتَه، وهوَ مَنطقٌ رَبّانيّ أريدَ به أنْ يَتواصَلَ الناسُ بعضُهم ببعْض وأنْ يُكمّلَ بعضُهم بَعْضا لأنه لا يوجدُ في هذا الكون كمالٌ مُطلقٌ، لأنّ المُطلقَ الكاملَ هو رَبُّ هذا الكون وخالقه فقط. وليْسَ مِنْ شك، أخي العربي، أنّ التعَرّبَ والتعْريبَ قوة لك وسَنَدٌ لامْتيازكَ في هذا الكوْن، وهُما يزيدانك جَمالا على جَمال، وعَظمة على عظمة، بما يُضيفان للعَربيّة مِنْ ألفاظ هي في أمس الحاجة إليْها، وبما يَشحَنانِ المَعانيَ العَرَبيّة والخيالات العربيّة والصُّوَرَ والمَفاهيمَ مِنْ تفاعُل وتلاقح يُؤدي إلى الامْتيازِ والنّضج الحضاريّ كما هوَ مَحسوسٌ في مَكتبتنا العَرَبيّة.

وما أطيبَ أنْ نختمَ كلامَنا، في هذا الباب، بهذه الفقرة، للدكتور رمضان عبد التواب، رَحمه الله، من مَقالة لهُ بعُنْوان: " التعْريبُ وألفاظ الحَضارة " وردتْ في كتابه (فصولٌ في فقه العربية) حيث يقولُ: " وفي رأيي أنّ اللغة لا تفسُدُ بالدَّخيل، بلْ حَياتُها في هضم هذا الدخيل؛ لأنّ مَقدرة لغة ما على تمثل الكلام الأجنبيِّ، تعدُ مَزيّة وخصيصة لها، إذا هي صاغَتْه على أوزانها، وصَبّتْه في قوالبها، ونفختْ

فيه من روحها، وتركتْ عليه بصماتها " (رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص ٣٦٧)، ثمّ يقتبسُ الدكتورُ رمضانُ، تدْعيما لما ذهبَ إليْه في موضوعِ التعْريب، كلاما للدكتورِ أحمد عيسى من كتابه: " التهذيبُ في أصولِ التعْريب" حيث يقولُ فيه: " فالتعريبُ إذن ضروريٌّ لحَياة العلم، ومتى كانت القيودُ الموْضوعَة له، هيَ كما بَيّنا منْ قبْلُ، فلا خوفَ منه على كيانِ اللغة، فإنما اللغة قائمَة بحُروفِ مَعانيها وأفعالِها وصَرْفها ونحْوِها، وبيانها وشِعرها، وخصائصِها التي تمْتاز بها، لا ببضعِ مُفردات غريبة عنها، قد التجَأتْ إليْها، فكُسيَتْ بكسائها، وطليَتْ بطِلائها، حتى أصْبَحَتْ منْها وعَليْها ". (رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص ٣٦٨)

وهكذا يَجْتَمِعُ لدَيْنا، بالتعْريب، زادٌ وفيرٌ من الثروةِ اللفظية العربية، وبهذا نردُ على أولئك الذين يَتطاوَلون على العَرَبيّةِ وغناها اللفظيّ. فبالتعريب تمْتلئ الخزانة اللغوية بما لذَ وطابَ من الألفاظ الفنية والعلميّةِ والحَضَريّة، وبما تحْتاجُه الحَياة في كلِ عَصْرٍ وجيل، دونَ كللٍ أو مَلل، ما دامتْ حَرَكة الحَياة تحْتاجُ إلى هذا كله، من أيّ أمّة، ومنْ أيِّ عُنصُرٍ إنسانيٍّ، فالناسُ سَواسيَة كأسْنانِ المشط، كما يقولُ الرسولُ الأكرَمُ، وكذلك كما يَقولُ اللهُ في كتابه الكريم:" وجَعلناكمْ شعوبا وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكمْ"، ومنْ أيِّ لوْنٍ من ألوانِ العلم والمَدَنيّة. وبهذا تُعلنُ العَرَبيّة وأهْلها أنْ لا مُشكلة أبدا في أنْ نقترضَ منَ الآخرين، ما دامَت الحَياة الإنسانية تتكامَلُ جُهودُها بذلك الاقتراضِ، وما دامَتْ سُننُ الحَياة تقومُ على التعاوُنِ المُخْلص والحُب، ولا بَديلَ لهاتيْن العَيْنَيْن النّضّاخَتيْن في دَفع عَجَلةِ الحَياةِ اللغويّةِ العَرَبيّة نَحْوَ المُسْتوى الأفضل.

٤) الخُلاصَة :

أمّا بَعْدُ فقد اتضحَ لنا بَعْدَ هذا التفصيل أنَّ اللهَ، سُبْحانهُ وَتعالى، قدْ حَبا العَرَبيّة بعَيْنيْن نَضّاختيْن أبَديّتيْن تَصُبّان في نَهْرها الأبَديّ المُتدَفق النّابع منَ صَحْراء العَرَب في مَكة والمَدينة المُنوّرَة، وهذه آيَة منْ آياته العَظيمَة التي حَبا بها الأمّة العَرَبيّة بعامّة، وهي آيَة تُشبهُ في جَمالها وإبْداعها تدَفقَ مياهِ زَمْزمَ في قلب صَحْراءَ قاحلة لا تُنْبتُ شجَرا ولا زَرْعا. لقدْ أعْطتْ هذه الآية اللغويَّة القائمَة على التفاعلِ والاحْتكاك البَشريّ نهْرَ اللغة العربيّة عُذوبة وانْسجاما معَ حَرَكَة الكوْنِ القائمَة على الأخْذ والعَطاء بيْن الأمَم والشعوب الحَيّة. لقدْ هَيّأ اللهُ للعَرَب أنْ يُعْطوا البَشريّة نورا من قرْآنٍ يُتلى بهذه اللغة الشريفة، وأحاديث شريفة لا يَنطقها الرَّسولُ عن الهَوى، إنّما هيَ وَحْيٌ يُوحَى، فاجْتمعَ بهذا للناس أجْمَعينَ نَهْرٌ لغويّ لا يَخْلَقُ على الرَّدِّ والاسْتعْمال، بلْ يَزدادُ بَريقاً وَلمَعاناً وَجَمالاً وَحَيَويّة بما تصُبُّ فيه الأمَمُ والشعوبُ المُتعربَة ما أفاضَ اللهُ عَليْها منْ أفكارٍ وألفاظ تحْتاجُها الحَياةُ المُتجدِّدَةُ.

إنَّ، منْ أعْظم مَعالم القوّة التي يَجدُها الدارسُ في الحَضَارَة العَرَبيّة الإسْلاميّة، ما جادَتْ به الأمَمُ المُتعَربة منْ مَعانٍ وأفكارٍ وإلهامات وَهَبَها اللهُ لها، فجادتْ بها طواعيَة وحُبّا وانْتماءً إلى هذه الحَضارَة، فانصَهَرَ ما جادوا به في ما كانَ عنْدَ العَرَب، لتكونَ بيْنَ يَدَي العالمين حَضارة إنسانيّة قوامُها الإيمانُ باللهِ الواحدِ الأحَد، وحُبُّ الخيْر للناس أجْمَعين، والحَدْبُ والعَطفُ على البَشريّة التائهَة عن الطريق الذي يَكفلُ لها الأمانَ والفلاحَ. ولقدْ هيّأ اللهُ لهذه الحَضارة صُروحَ علمٍ وَثقافة تسْطعُ أنوارُها وَلآلئُها في الحَياة الإنسانيّة بحَيْث تكونُ حضْنا دافئا لكُلِ مُتعَطشٍ إلى النورِ الذي يُبْعدُه عن التيه والظلام والتخلف والظلم، ثمّ تأخذ بيدِه إلى الوُضوحِ والنّورِ والتقدُّم والمَدَنيّة وَالعَدْل.

إنّ العربيّة دَوْحَة عَميقة الجُذورِ باسقة الأغْصانِ وارفَة الظلال مُبارَكة ببرَكة اللهِ وقرْآنه الكريم، ومُعَطرَة بشذى رَسولهِ الأكرَم وأحاديثه الشريفة، إنها تُسقى منْ مياهِ مَكّة والمَدينة المُنوّرَة وتحضُنُها شمْسُ الجَزيرة العَرَبيّة الخالدة الدّافئة، وبعدَ هذا كله تُسْتطابُ ثمارُها اللذيذة منْ كلِ حَدْبٍ وَصَوْب، ومن كُلِ صقعٍ من أصْقاع العالم الإسْلاميّ الذي أشرقَ عليه امْتدادُها في شرقِ المَعمورة وغرْبها، وفي شمالِها وجَنوبها. فإذا جَمعْتَ هذه الثمارَ الطيّبة وجَدْتَ أنّها صَرْحٌ علميّ وَثقافيٌّ واجْتماعيّ وأدبيّ لا مَثيلَ له بين أمَم الأرْضِ وبيْن الحَضارات الإنسانيّة. وإنّ مَنْ يَتشككُ في هذا الذي نبْسُطه عن دوْحَة العَرَبيّة فليُشمرْ عن ساعدَيْه وَليَنْطلقْ إلى مُسْتودَعات الكتب التي ألفها أبْناءُ هذه اللغة من الأمَم التي تعَرَّبتْ، ثم اتخذت العرَبية لسانا وكتابة وخطابا حَضاريّاً لا يتوَقفُ ولا ينْضُبُ رُواؤه، فليَنْطلقْ إلى دُورِ الكُتُب في الشام ومصْرَ والجَزيرة والعراق، وليُشرِّقْ إلى الصّينِ والهنْد وإيرانَ، وليُغربْ إلى تونسَ والجَزائرِ والمَغرب ومُوريتانيا

والأندَلس ومُعْظم دُول أوروبا، وليُشمِّل إلى أذرْبيجانَ وتركيّا وغيْرِهما، ليَرى بأمِّ عَيْنِه هذا الكمَّ الهائلَ مِنَ المَخطوطات المُتناثِرة هُنا وهُناك، وهيَ تبْكي على ما وصَلتْ إليْه من نِسْيانٍ وإهْمالٍ، وهيَ تصْرُخُ بأعْلى صَوْت قائلة لأهْلِها مُعاتبة لهمْ: ألمْ يَحِنِ الوَقتُ لانْطلاقي مِنْ عقالي وَسجْني؟ ألمْ يَحِنِ الوَقتُ لأرى النّورَ لتُنوِّرَ بي العُقولُ؟!؟!

التعَرّبُ بابٌ تفتحُه العَرَبيَّة لمُرْتاديها ومُريديها وضُيوفِها من الأمَم الوافِدَة على طريقة الأخلاق العَرَبيّة في إكرام الضّيْف. فالعَرَبيّ، إذا جاءَه ضيْفٌ، فإنّه يُرَحِّبُ به ويُجْلسُه في صَدْرِ مَجْلسه، ثمَّ يُقدِّمُ لهُ أجْودَ ما يَتيَسَّرُ لدَيْه مِنْ شراب أوْ طعام، وهوَ كذلكَ معَ المُتعرِّب، إنّه يُكرِمُه بتعْليمِهِ لغتَه، وبعدَ أنْ يُلبسَه هذا الثوْبَ اللغويّ العَرَبيّ يَعْرِضُ عليْه نَسَبَه ليُصْبحَ مِنْ دَمِه ولحْمِه وَمِنْ أمَّته دونَ خوْف أوْ وَجَل أوْ كبْر أوْ تَرَدُّد. وَكأنّه، بهذا السُّلوك الرَّفيع، يَسْعى إلى صناعَة أمَّة كالجَسَد الواحد فتنبثقُ منْها أجْيالٌ مُتعاضِدَة مُتفاهِمَة في النّسَب واللسان لخدْمَة الفكر النّبيل الذي أوْحى به اللّه للرسول العَرَبيّ، صَلى اللّه عليْه وَسَلمَ، وَلتتخلصَ البَشريّة مِنَ الآفات الفكريّة والسُّلوكيّة المُفسدَة للوُدِّ والحُبِّ الذي يَجبُ وُجودُه وَتناميه بيْن النّاس والعالمين. وبهذا تضْربُ هذه الحَضارَة المَثلَ الأعْلى لتحَقق الوَحْدة الإنْسانيّة الفاضلة النّظيفة التي تحْلمُ بوجودِها الفلسفاتُ الوَضْعيّة.

وَلتثبيت هذا المَفهوم النبيل بيْنَ الأمَم والشعُوب شرَع الدينُ الإسْلاميّ نظامَ الوَلاءِ بيْن العَرَب، حَمَلة هذا الدين والرِّسالة، وبيْن الشعُوب المُتعَرِّبَة، بحيْث يُصْبحُ المُتعَرِّبُ عَربيَّ اللسان والهيْئة والنسَب والقبيلة والاسْم والكُنْيَة ليَفسَحَ له المَجالَ في الأخْذ والعَطاء والتفاعُل معَ الحراك الحَضاريّ الحَيَويّ الأبَديّ الجَديد الذي انْتمَى إليْه، وَليشارِكَ في صناعَة حَضارة رَبّانيَة لخَيْر البَشَريّة. والناظرُ في الحَضارات التي سادتْ ثمَّ بادتْ لا يَجدُ فيها مَثيلاً لهذا التصَوُّر، وَليْسَ هُناكَ مَثيلٌ لمُسْتوى هذا الإكرام الذي تُقدمُه الحَضارَة العَرَبيّة للوافد إليْهَا، إنها تُقَدِّمُ له كلَّ ما بسَطناه مِنْ قيَم وَمَفاهيمَ حتى تمَتنَ بقاءَه وامْتدادَه في هذه الحَضارَة، وتشجعُ اسْتقرارَه ووِفادَتَه بأرْيَحيّة واحْترام ليَكونَ عُنْصُرا فعّالا مُشاركا في البناء والإيجابيّة. ويبْقى الدينُ قيِّما على ضَبْط هذه المَسيرة المُبارَكة لافظا لأيِّ سُلوك مُضاد لهذه المَفاهيم مُعلنا الحَرْبَ عليْه، لأنّه يعْتبرُه شذوذا وردّةً وخلافا لما يدْعو إليه هذا الدين. ولقدْ كان أولَ مَنْ عبّد الطريقَ لهذا المَنْهَج القويم الأخْلاقُ الفاضلة التي كان يَتحَلى بها الرسولُ مُحَمَّدٌ، صَلى اللّه عَليْه وَسَلمَ، فضربَ مَثلا شرودا في الفضْل والكَرَم واحْترام المُتعَرِّبين، عندما قالَ في سَلمانَ الفارسيّ: (سَلمانُ منّا آلَ البَيْت).

فأيْن هذا مِمّا نشاهِدُه هذه الأيامَ عِنْدَ الأمَم والشعُوب التي تَزْعُمُ العَدْلَ والديمقراطيّة في اوروبا وأميركا ؟! فهيَ من أوّل يوْم تقبَلُ فيها مُواطنَتَكَ تنْظرُ إليْك بعَيْن الشكّ والريبَة والتّخوُّف، وَتبْقى هذه النقائصُ تلاحقك في أيِّ مَكان تتحَرّكُ فيه، إنها تلاحقكَ في البيْت فلا وُجودَ لأخلاق الجيرة، وتلاحقك في المَعْهد وفي السّوق بحيْث يبْقى مَنْ يَعيشُ بيْنهُمْ مَسْكونا بالهَلع والخوْف، والأدلة على هذا كثيرَة وَيكفي أنْ نذكرَ منها دَليلا صارخا وهُوَ أنّ دَوْلة أوروبيّة، قبْلَ سَنوات مَعْدودات، وَلعَلها بُلغاريا فرَضتْ على كلِ بلغاريٍّ يَتسَمَّى باسم غيْر بُلغاريّ، وهي تقصدُ هنا الاسْمَ العَرَبيّ المُسْلمَ، أنْ يَتسَمّى باسْم بُلغاريّ وإلا فقدَ جنسيّته. والسّببُ الأوّلُ لهذا هو ما تربَّوْا عَليْه من أنانيّة بَغيضَة جَلبَتْ لهذا العالم الوَيْلَ والدّمارَ والاسْتعْمارَ ونمَّتْ الاقتتالَ والحُروبَ والكراهيَة بين الشعوب، وهذا كله على عَكس ما تطرَحُه الحضارَة العربيَّة من حُبٍّ وتسامُح ورَغْبَة قويّة في قبول الآخَر، والأخْذ بيدِه إلى التقدم والعَلياء، كما وَصَفنا هذا قبْلَ قليل. وأنا لا أبالغُ أبدا في هذا فخُذ مائة سَنة من الحُكم الإسْلاميِّ على أيّ مَنطقة في الشرْق وانظرْ كم أنتجَتْ من العلم والعُلماء، ثمَّ وازنها بأيِّ مائَة تحْتَ حُكم الاسْتعْمار الغربيّ، فهو الذي ابْتلينا به، وانظرْ كمْ أفرزتْ مِنَ الجَهْل والوَيْلات والتخلف الذي عانتْ منه أجْيالٌ كثيرَة حتى يومِنا هذا !؟!؟

٥) المراجع:

١- د.إسماعيل عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، دار الملاحي ، إربد، ١٤٠٨هـ -١٩٨٧م
٢- د.رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية ، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، القاهرة والرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
٣- الزمخشري ، المفصل في علم العربية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٣٢٣هـ
٤- د.شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦
٥- عصر الدول والإمارات ، ج٥، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٠
٦- عصر الدول والإمارات ، ج٦، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٣
٧- عصر الدول والإمارات ، ج٧، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٦
٨- عصر الدول والإمارات ، ج٨، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٨٩
٩- عصر الدول والإمارات ، ج٨، دار المعارف بمصر ، القاهرة ،١٩٩٢
١٠- د.صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين /ط ٩ ، بيروت، ١٩٨١
١١- د.عبد الكريم مجاهد ، علم اللسان العربي ، منشورات جامعة القدس المفتوحة، القدس، ٢٠٠٩
١٢- د.عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤
١٣- النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م
١٤- التطبيق الصرفي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م
١٥- د.علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م
١٦- علم اللغة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٢
١٧- أ.د. فرحان السليم ، مقالة بعنوان: اللغة العربية ومكانتها بين اللغات، موقع Google.
١٨- فندريس ، اللغة (ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص)، مكتبة الأنجلو مصرية/القاهرة، ١٩٥٠م
١٩- د.محمد المبارك ، فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م
٢٠- د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، دار الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م
٢١- مقالات في الأدب واللغة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م
٢٢- د.محمود حجازي ، أسس علم اللغة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩
٢٣- أ.د. نصرت عبد الرحمن وزميلاه، اللغة العربية ٢، جامعة القدس المفتوحة، القدس، ٢٠١٢
٢٤- أ.د.نهاد الموسى وآخرون، علم الصرف ، جامعة القدس المفتوحة ' القدس، ٢٠٠٩
٢٥- ولفنسون (أبو ذؤيب)، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت،١٩٨٠م
٢٦- ياسر الملاح ، المقدمة إلى علم المعنى في العربية، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م
٢٧- د. يعقوب بكر، العربية لغة عالمية، نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٦